﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب: 45 - 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

النَّبيُّ ﷺ سببُ خيرٍ لكلِّ أُمَّته

لمّا بيَّن الله ﷻ ثوابَ المؤمنين الذّاكرين وعظيمَ ما أعدّه لهم؛ أشار إلى سبب ذلك وهو إرسالُه النَّبيّ ﷺ؛ إذْ ما من طاعة يقومون بها وأجرٍ يأخذونه عليها إلّا والنَّبيُّ ﷺ الدّاعي لها، والمُرغِّبُ فيها، والمُبشِّرُ بثوابها، والمُنذرُ من عقوبة تركها، ولذلك شرَّفه بالخطاب بعد ذِكْرِه والثَّناء عليه بالغيبة.

وقيل: لمّا وعظَ ﷻ المؤمنينَ بما أقبلَ بأسماعِهم وقلوبِهم إلى النَّبيِّ ﷺ وختمَ بما يوجِبُ لهم الفوزَ بما عندَهُ سبحانَهُ، وكانَ مُعظَمُ ذلكَ لهُ ﷺ؛ إذ هو رأسُ المؤمنينَ - نوَّهَ بهِ ﷺ بخطابِهِ بما في هاتيْنِ الآيتيْنِ[1].

وقيل: لمّا بيَّنَ سبحانَهُ أنَّهُ أخرجَ المؤمنينَ مِنَ الظُّلماتِ إلى النّورِ برحمتِهِ، وبسببِ دعاءِ الملائكةِ واستغفارِهم؛ أشارَ إلى رحمتِهِ للمؤمنينَ بإرسالِ النّبيِّ ﷺ[2].

وفي هذيْنِ الوجهيْنِ نظرٌ لمناسبةِ الآيتيْنِ للآياتِ القريبةِ منهما.

ذِكْرُ علاقةِ النَّبيِّ ﷺ مَعَ الخَلْقِ بعدَ ذِكْرِ علاقتِهِ مَعَ ربِّهِ وأهلِهِ

وقيل: بعدَ أنْ ذَكَرَ ﷻ في أوَّلِ السّورةِ ما يتعلَّقُ بعلاقةِ النَّبيِّ ﷺ مَعَ ربِّهِ، بنهيِهِ عن طاعةِ الكافرينَ والمنافقينَ، وذكرَ ما ينبغي أنْ يكونَ عليهِ النَّبيُّ مَعَ أهلِهِ؛ ذكرَ ما ينبغي أنْ يكونَ عليهِ مَعَ الخلقِ كافَّةً[3]، وفي هذا الوجهِ نظرٌ إلى مناسبةِ الآيتيْنِ لآياتٍ بعيدةٍ منهما.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 371.
(2) زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 645.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 173.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَٰهِدًا﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على الحضورِ والعِلمِ والإعلامِ[1]، والأصلُ فيه أن يكون بالمشاهَدة، فالشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضورُ معَ المشاهَدةِ؛ إمّا بالبصرِ، أو بالبصيرةِ[2]، والشَّهادةُ أيضًا: قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حصلَ بمشاهَدةِ بصيرةٍ أو بصرٍ[3]، والمُرادُ بكونِ النَّبيِّ ﷺ شاهدًا: أنّه مُخبرٌ عن أحوالِ أمَّتِهِ وأحوالِ الأممِ السّابقةِ، ومهيمنٌ على الشَّرائعِ السّابقةِ، يشهدُ بصحَّةِ ما هو صحيحٌ مِنَ الشَّرائعِ، وبقاءِ ما هو صالحٌ للبقاءِ منها، ويشهدُ ببطلانِ ما أُلصِقَ بها، وبنسخِ ما لا ينبغي بقاؤُهُ مِنْ أحكامِها.

2) ﴿وَمُبَشِّرًا﴾: (بشر) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ معَ حُسْنٍ وجمالٍ[4]، ومِنْ ذلكَ: البَشَرةُ، وهي ظاهرُ الجِلْدِ، والبِشارةُ مأخوذةٌ مِنْ ذلكَ؛ لأنَّها الإخبارُ بخبرٍ سارٍّ يبسطُ بَشَرةَ الوجهِ، وذلكَ أنَّ النَّفْسَ إذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشَّجَرِ[5]، والمُرادُ بالمُبشِّرِ هنا: المُخبرُ بالبُشْرَى والبِشارةِ[6]، والنَّبيُّ ﷺ مُخبرٌ بما فيهِ سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ.

3) ﴿وَنَذِيرًا﴾: (نذر) أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ، ومنهُ: الإنذارُ، وهو الإبلاغُ بما فيهِ تخويفٌ[7]، واشتُقَّ منهُ النَّذيرُ والمُنذِرُ، وهو المُخبرُ بما فيهِ تخويفٌ[8]، وهذا هو المُرادُ هنا؛ فالنَّبيُّ ﷺ مُخبرٌ بالعقوبةِ للَّذينَ يخالفونَ دينَهُ مِنَ الكافرينَ، ومِنْ أهلِ العصيانِ[9].

4) ﴿وَسِرَاجًا﴾: (سرج) أصلٌ يدلُّ على الحُسْنِ والزّينةِ والجمالِ[10]، ومِنْ ذلكَ: السِّراجُ، وهو الزّاهرُ بفتيلةٍ ودُهْنٍ[11]، وقد سُمّيَ بذلكَ لضيائِهِ وحُسْنِهِ، ويُعبَّرُ بهِ عن كلِّ مُضيءٍ[12]، والمُرادُ بكونِ النَّبيِّ ﷺ سراجًا: أنَّهُ قد أضاءَتِ الدُّنيا بما جاءَ بهِ مِنَ الإيمانِ والحقِّ[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (شهد).
(3) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (شهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (بشر).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 53.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(8) الرَّاغب، المُفردات: (نذر).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 53.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرج).
(11) الخليل، العين: (سرج).
(12) الرَّاغب، المُفردات: (سرج).
(13) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سرج)، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سرج).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اشتمالُ النَّبيِّ ﷺ على أوصافِ الكمالِ

يقولُ اللّهُ تعالى لنبيِّهِ ﷺ: يا محمَّدُ إنّا أرسلناكَ شاهدًا على أمَّتِكَ وعلى الأُمَمِ يومَ القيامةِ، ومُبشِّرًا للمؤمنينَ الطّائعينَ بالجنَّةِ، ونذيرًا للكافرينَ والعُصاةِ بالنّارِ، وداعيًا إلى سبيلِ اللّهِ بتوفيقِهِ وتيسيرِهِ، وسراجًا مُنيرًا، تَهدي إلى الحقِّ، وتُزيلُ ظلماتِ الكفرِ والجهلِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ الكريمة:

النَّبيُّ ﷺ رحمةٌ لكلِّ العالمينَ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ ...، الآية، عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ جيءَ بهِ للانتقالِ للحديثِ عن إرسالِهِ ﷺ موصوفًا بالأوصافِ الجليلةِ التي هي ثمارُ رحمته ﷺ والَّتي عليها مدارُ صلاحِ النّاسِ بعدَ الحديثِ عن رحمتِهِ سبحانَهُ بالمؤمنينَ، وما أعدَّهُ لهُم مِنَ الثَّوابِ العظيمِ.

بلاغةُ تلوينِ الخطابِ:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ بعِزِّ الخطابِ والحضورِ

انتقلَ الأسلوبُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ مِنْ خطابِ الجماعةِ المؤمنةِ باللّهِ في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب: 41] إلى خطابِ رأسِ هذهِ الجماعةِ، وهو النَّبيُّ ﷺ؛ لتذكيرِهِ برسالتِهِ في الأرضِ وتحديدِ مهمّاتِهِ[1]، وهذا الانتقالُ تفنُّنٌ في الكلامِ، وفي توجيهِ الخطابِ لهُ ﷺ تشريفٌ لهُ بعِزِّ الخطابِ والحضورِ، وإيقاعٌ لهذهِ الأوصافِ في سمعِهِ، ولينبنيَ على الخطابِ قولُهُ بعدَ ذلكَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ...، الآية.

بلاغةُ الافتتاحِ بالنِّداءِ:

اتِّصافُ النَّبيِّ ﷺ بالأوصافِ الكاملةِ الرَّفيعةِ

عُبِّرَ بالنِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ...، الآية، واستُعمِلَتْ فيهِ (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ إشارةً

(1) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 363.

إلى شدَّةِ الاهتمامِ بالأمرِ الَّذي سيقَ لهُ الكلامُ، وهو التَّنويهُ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، ووصفُهُ بالأوصافِ الرَّفيعةِ[1]، ولذلكَ نُبِّهَ النَّبيُّ ﷺ ولُفِتَ انتباهُهُ لِما سيُتلَى عليهِ؛ ليتلقّاهُ بنَفْسٍ يَقْظَى.

سرُّ النِّداءِ بوصفِ النُّبوَّةِ دونَ غيرِهِ:

الـدّلالـةُ على الرّفعة وعلوّ المنزلة لاتّصاله بخبر السّماء

نوديَ النَّبيُّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بوصفِ النُّبوَّةِ دونَ اسمِهِ العلَمِ؛ تشريفًا لهُ ومدحًا بالوصفِ الَّذي هو مَنْبَعُ المعرفةِ والحكمةِ.

ونوديَ بالنُّبوَّةِ دونَ الرِّسالةِ؛ لأنَّ وصفَ الرِّسالةِ بمنزلةِ المذكورِ في الآيةِ بعد وصفِ النُّبوّة مباشرة؛ إذ يدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾، وهو يُشبه في ذلك حديثَ: (وبنبيّك الذي أرسلت)[2]، ولموافقةِ ما في مواضعَ أخرى مِنَ السّورةِ؛ إذِ الغالبُ في هذهِ السّورةِ ذِكْرُ وصفِ النُّبوَّةِ، سواءٌ في النِّداءِ - وقد نوديَ النَّبيُّ ﷺ بهذا الوصفِ خمسَ مرّاتٍ في السّورة - أو في غيرِهِ.

غرضُ الإخبارِ بالإرسالِ:

الرِّسالةُ نعمةٌ عظيمةٌ لا تقلُّ عن نعمةِ النُّبوَّة

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ ... الآية، خبرٌ لا يُرادُ بهِ مُجرَّدُ الإخبارِ؛ لأنَّهُ ﷺ يعلمُ أنَّهُ مُرسَلٌ مِنَ اللهِ تعالى، ولكنَّ المُرادَ بهِ تأنيسُهُ ﷺ بإجراءِ هذهِ الصِّفاتِ الجليلةِ عليهِ، والامتنانُ عليهِ بها، والتَّمهيدُ لذِكْرِ التَّكليفِ، وتأنيسُ المؤمنينَ والامتنانُ عليهم أيضًا؛ إذ أُرسِلَ إليهم رسولٌ موصوفٌ بهذهِ الصِّفاتِ الَّتي فيها لهُم خيرٌ عظيمٌ[3]، وبذلك يكون قد جمع بين أعظم وصفيْن، وصفِ النّبوة، ثمّ وصفِ الرِّسالة.

نكتةُ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾:

لا شكَّ في ثبوتِ الرِّسالةِ

يحتملُ أنْ يكونَ التَّأكيدُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾؛ للرَّدِّ على

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 371، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 52.
(2) أخرجه البخاريّ (247)، ومسلم (2710).
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 389، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 200.

الكافرينَ والمنافقينَ الَّذينَ يُنكرونَ الرِّسالةَ وما تَبِعَها[1]، كما يحتملُ أنْ يكونَ التَّأكيدُ لإظهارِ الاعتناءِ بكونِهِ ﷺ مُرسَلًا بعد كونه نبيًّا مُرسَلًا مُتَّصفًا بهذهِ الأوصافِ الجليلةِ، وبيانِ أنَّ رسالتَهُ مِنَ اللّهِ تعالى بمكانٍ، وفي ذلكَ حثٌّ للمؤمنينَ بل للنّاسِ جميعًا على التَّيقُّظِ لمضمونِ الكلامِ والتَّصديقِ بهِ؛ ليَقْدُروا النَّبيَّ ﷺ حقَّ قَدْرِهِ، ويَعْلَموا أنَّهُ نِعْمةٌ عُظمى، ورحمةٌ كُبرى، ينبغي الانتفاعُ بها وعدمُ التّفريط فيها.

وعلى كلٍّ؛ فالتَّوكيدُ حاصلٌ بـ(إنَّ) وبذِكْر ضمير التّعظيم (نا)، وببناءِ المُسنَدِ الفعليِّ ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ على المُسندِ، وهو (نا) في ﴿إِنَّآ﴾، فيفيدُ الكلامُ نسبةَ الإرسال إلى اللّهِ تعالى مرَّتيْنِ، كأنَّهُ قيلَ: إنّا أرسلنا لكَ، إنّا أرسلنا لكَ.

سرُّ الإسنادِ في ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ﴾:

عظَمةُ كلِّ مَنِ انتسبَ إلى الرِّسالةِ

جيءَ بضميرِ العظَمةِ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ﴾، ولم يُقَلْ: (إنّي أرسلتُكَ)؛ لتعظيمِ شأنِ الإرسالِ بأنَّهُ إرسالُ ذي العظَمةِ والجلالِ، والمعنى: إنّا أرسلناكَ بعظَمتِنا بما نُنبِّئُكَ بهِ إلى سائرِ خَلْقِنا[2]، وفيهِ أيضًا تعظيمٌ للمُرسَلِ بأنَّهُ رسولُ العظيمِ سبحانَهُ، ويلزمُ مِنْ ذلكَ تعظيمُ المُرسَلِ إليهم حيثُ أُرسِلَ إليهم هذا النَّبيُّ الباهرُ الشَّأنِ ﷺ، وينبغي عليهم القيامُ بحقِّ هذهِ الرِّسالةِ؛ لينالوا شرفَ هذا التَّعظيمِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾:

لا عُذرَ لجاحدِ النُّبوَّةِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إرسالَ النَّبيِّ ﷺ أمرٌ مُتحقِّقٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وفي ذلكَ زيادةُ تأنيسٍ للنَّبيِّ ﷺ وتسليةٌ له، وقطعٌ لأعذارِ الجاحدينَ المُنكرينَ لنبوَّته.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.

علّةُ حذفِ مُتعلَّقِ الإرسالِ:

النّبيُّ مُرسَلٌ لكلّ النّاس

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، تقديرُهُ: إنّا أرسلناكَ لكلّ النّاس، أو إلى كلّ النّاسِ، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ الإرسالِ إيجازًا؛ لكونِهِ معلومًا مِنْ آياتٍ أخرى، كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النساء: 79]، ولأنَّ حذف مُتعلِّق الفعل يُفيد العمومَ.

بلاغةُ الحالِ ﴿شَٰهِدٗا﴾:

تشريفُ الشّاهدِ وتخويفُ المشهودِ عليهِم

قولُهُ تعالى: ﴿شَٰهِدٗا﴾ حالٌ مِنْ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وهي حالٌ مُقدَّرةٌ؛ لأنَّهُ ﷺ لا يكونُ شاهدًا وقتَ الإرسالِ، وإنَّما يكونُ كذلكَ عندَ تحمُّلِ الشَّهادةِ أو عندَ أدائِها[1]، والمعنى: أرسلناكَ مُقدَّرًا أنْ تكونَ شاهدًا، ويحتملُ أنْ يكونَ وجهُ الحالِ أنَّهُ قد قَرُبَ زمانُ البعثةِ وإيمانِ مَنْ آمنَ وتكذيبِ مَنْ كذَّبَ، وكأنَّ ذلكَ قد وقعَ في زمانٍ واحدٍ[2].

وأيًّا ما كانَ التَّوجيهُ؛ فالإتيانُ بالحالِ بيانٌ لكونِ الشَّهادةِ مِنْ مُقتضَياتِ الإرسالِ، وفي ذلكَ تعظيمٌ لشأنِ المُرسَلِ الشّاهدِ، وتخويفٌ للمشهودِ عليهِم إن لم يُؤمِنوا ويُحسِنوا العملَ، وحثٌّ لهُم على الاستجابةِ وإحسانِ العملِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّهادةِ:

اتّساعُ المعاني للّفظةِ الواحدةِ في ذاتِها مع عمومِ مُتعلّقِها

يدلُّ لفظ (شهد) أصالةً على حضورٍ ومشاهَدةٍ بالعين، كما أنَّه يدلُّ تبعًا على علمٍ ناتجٍ عنِ الحضورِ والمشاهَدة، ويدلُّ كذلك على إعلامٍ دقيقٍ مُنضبطٍ ناتجٍ عن دقّة الرُّؤيا، فكلُّ هذه المعاني دلَّ عليها لفظُ (شهد)، (أرأيت الشمس؟، قال: على مثلها فاشهد أو دع)[3] دلالةٌ على معنيَيْن من هذه المعاني الأربعة، أوّلهما: وضوحُ الرّؤية ودقّتُها عند المشاهَدة، والثّاني: صدقُ الإعلام ودقّتُه عند الإخبار.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 487.

(3) في الحديث عن عبدالله بن عبّاس ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لرجُلٍ: "تَرى الشَّمسَ؟ قالَ: نعَم، قالَ: علَى مثلِها فاشهَد، أو دَعْ"، ينظر: ابن حجر العسقلاني، بلوغ المرام، والحديث إسناده ضعيف.

في التَّعبيرِ بالشّاهدِ أيضًا في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ مبالغةٌ؛ لتعدُّدِ معاني الكلمةِ المحتملةِ في هذا السّياقِ؛ إذ يحتملُ أنْ يكونَ المُرادُ أنَّهُ ﷺ شاهدٌ على مَنْ بُعِثَ إليهم، وعلى تكذيبِهم وتصديقِهم[1]، أو أنَّهُ شاهدٌ على الخلقِ يومَ القيامةِ أنَّ أنبياءَهم بلَّغوهم، أو أنَّهُ شاهدٌ في الدُّنيا بأحوالِ الآخرةِ مِنَ الجنَّةِ والنّارِ والميزانِ والصِّراطِ، وشاهدٌ في الآخرةِ بأحوالِ الدُّنيا مِنَ الطّاعةِ والمعصيةِ، والصَّلاحِ والفسادِ[2]، أو أنَّهُ شاهدٌ بصحَّةِ ما هو صحيحٌ مِنَ الشَّرائعِ، ويشهدُ ببطلانِ ما أُلصِقَ بها، فيكونُ وصفُ الشّاهدِ أشملَ الأوصافِ المذكورةِ في الآيةِ له ﷺ، بوصفِ كونِهِ رسولًا لهذهِ الأمَّةِ، وبوصفِ كونِهِ خاتمًا للشَّرائعِ ومُتمِّمًا لمُرادِ اللّهِ مِنْ بعثةِ الرُّسلِ[3].

النَّبيُّ ﷺ شاهدٌ، ولا يشهدُ إلّا عن يقينٍ

نكتةُ إطلاقِ الشَّهادةِ:

أُطلِقَتِ الشَّهادةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾، ولم يُقَلْ: (شاهدًا على كذا)؛ لتفخيمِ شأنِ الشَّهادةِ؛ لِما يفيدُهُ الإطلاقُ مِنْ تعدُّدِ الاحتمالاتِ وسَعَةِ المعاني كما تقدَّمَ.

نكتةُ تنكيرِ الأحوالِ في الآيةِ الكريمةِ:

تنكيرُ الأحوالِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا﴾ للتَّفخيمِ، فكلُّ وصفٍ مِنْ هذهِ الأوصافِ عظيمٌ في ذاتِهِ، ويزيدُهُ التَّنكيرُ فخامةً وتعظيمًا ﷺ.

تعظيمُ أوصافِ النَّبيِّ ﷺ

بلاغةُ تقديمِ الشَّهادةِ:

قُدِّمَ الوصفُ بالشَّهادةِ في قولِ اللّهِ عزَّ ذِكْرُهُ: ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ معَ أنَّ أداءَ الشَّهادةِ يكونُ في يومِ القيامةِ؛ لأنَّ تحمُّلَها في الدُّنيا، وللاهتمامِ بها؛ لأنَّها

شهادةُ النَّبيِّ ﷺ عن صدقٍ وأمانةٍ وضَبطٍ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 173.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 52.

أقوى في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[1]، وفي تقديمِها إشارةٌ إلى أنَّهُ ينبغي على المُسلِمِ أنْ يراعيَ حُرمةَ هذا الوصفِ فيهِ ﷺ، ويحرصَ على ألّا يَسوءَهُ بعملِ السَّيِّئاتِ، وفيهِ أيضًا إشعارٌ بثِقَلِ المسؤوليَّةِ المُلْقاةِ على عاتقِهِ ﷺ؛ إذِ الشّاهدُ مُكلَّفٌ بالصِّدقِ والأمانةِ والتَّحرّي والضَّبطِ.

سرُّ حذفِ متعلقِ اسمِ الفاعلِ ﴿شَٰهِدًا﴾:

حذفُ متعلقِ اسمِ الفاعلِ؛ أيْ: وشاهدًا على كلِّ شيءٍ أنت أهلُه، ليشملَ اسمُ الفاعلِ الحالَ والاستقبالَ في كلِّ مشهودٍ عليه، ولا يبدأ الحالُ من وقتِ نزولِ الآيةِ؛ بل يبدأ الحالُ من أوَّلِ الرِّسالةِ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا﴾، وبذلك يشملُ حياةَ النَّبيِّ ﷺ كلَّها، المعتبرةَ بالرّسالةِ، والمشرّفةَ بالنّبوّةِ، ثمّ تمتدّ الشّهادة بعد ذلك إلى يومِ القيامةِ.

شمولُ الشّهادةِ لكلِّ أنواعِها في الحالِ والاستقبالِ

بلاغةُ تعدُّدِ العطفِ:

عُطِفَتِ الصِّفاتُ في قولِهِ تعالى: ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ بعضُها على بعضٍ بالواوِ، ولم يُقَلْ: (شاهدًا مُبشِّرًا نذيرًا داعيًا إلى اللهِ بإذنِهِ سراجًا منيرًا...) دونَ عطفٍ؛ لأنَّ المُرادَ الإعلامُ برسوخِ قَدَمِهِ ﷺ في كلِّ صفةٍ منها[2]، كما هو مُقتضَى مقامِ التَّكريمِ والتَّشريفِ، والواوُ تُشعِرُ باستقلالِ كلِّ صفةٍ منها، حتَّى كأنَّ الذّاتَ مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ هذهِ الصِّفاتِ، ولو تُرِكَ العطفُ لربَّما ظُنَّ أنَّ الصِّفاتِ الأخرى تابعةٌ للصِّفةِ الأولى، وليستْ مقصودةً لذاتِها.

رسوخُ النَّبيِّ ﷺ في كلِّ وصفٍ مِنَ هذه الأوصافِ

نكتةُ صيغةِ التَّضعيفِ:

جيءَ بصيغةِ التَّفعيلِ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، ولم يُقَلْ: (مُبْشِرًا) معَ صحَّتِهِ؛ إذ يُقالُ: أبشَرْتُهُ، وبَشَرْتُهُ، وبشَّرتُهُ؛ لأنَّ البِشارةَ لها أثرٌ حسنٌ في إقبالِ المدعوِّ، وفي صيغةِ التَّفعيلِ هنا مبالغةٌ

عِظَمُ بِشارةِ النَّبيِّ ﷺ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.

في بِشارتِهِ ﷺ؛ لِما في هذهِ الصّيغةِ مِنَ الدَّلالةِ على كثرةِ الفعلِ والمفعولِ، وفي ذلكَ إيذانٌ بكثرةِ التّابعينَ والمُستجيبينَ المُبشَّرينَ[1]، وقد عُرِفَ مِنْ سيرتِهِ ﷺ المبالغةُ في الرَّحمةِ والرِّفقِ بالنّاسِ واللّينِ معَهم، وعدمِ تنفيرِهم مِنَ الدّينِ، وتركِ التَّشديدِ عليهِم، وهكذا ينبغي أنْ يكونَ حالُ العلماءِ والدُّعاةِ إلى اللهِ مِنْ بعدِهِ.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ التَّبشيرِ:

النَّبيُّ مُبشِّرٌ بالخيرِ لعمومِ المؤمنينَ

قولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معناهُ: ومُبشِّرًا للمؤمنينَ[2]، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ التَّبشيرِ لظهورِهِ، والإيذانِ بأنَّ البِشارةَ لا يستحقُّها إلّا المؤمنونَ المستجيبونَ، ولذلكَ لا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرِهم عندَ الحذفِ، لا سيَّما وقد صُرِّحَ بهذا المحذوفِ في قولِهِ تعالى بعدها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وللإيجازِ المناسبِ لحُسْنِ تتابعِ الأوصافِ المذكورةِ في الآيةِ وتلاحقِها، كما يمكن أن يكون الحذفُ للشُّمول والعموم المُنصرف للمؤمنين، فلا يندُّ أو يخرجُ من أهل الايمان أحدٌ من عموم هذه البُشرى حتى ولو كان عاصيًا.

المعنى المستفاد من إعمال اسمِ الفاعلِ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾:

الإيمانُ بالنَّبيِّ ﷺ منذ بدءِ رسالتِهِ

أُعمِل اسمُ الفاعل فنَصَبَ مفعولًا محذوفًا؛ أيْ: ومُبشِّرًا كلَّ المؤمنين بكلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة، وإنّما أُعمل اسمُ الفاعل ليشمل الحال والاستقبال منذ بدء الرّسالة، ولا يكون التّبشير إلّا لأهل الإيمان، فدلّ ذلك على أنّ هناك مَن سيؤمن بالنّبيّ ﷺ منذ نزول الوحي عليه؛ مثل: خديجةَ، وورقةَ بنِ نوفل، وأبي بكر الصِّدّيق، وعليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، حتى يتحقَّق التَّبشير منذ بدء الرِّسالة لهؤلاء المؤمنين، ويمتدَّ التَّبشير في المستقبل، ليشمل كلَّ المؤمنين بعد ذلك.

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 36، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.

سرُّ تقديمِ البِشارةِ على النِّذارةِ:

التَّبشيرُ غالبٌ على الإنذارِ

قُدِّمَ التَّبشيرُ على الإنذارِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾؛ لإظهارِ شرفِ التَّبشيرِ واستحقاقِهِ التَّقديمَ[1]، وبيانِ عُلوِّ درجةِ المؤمنينَ المُبشَّرينَ بتقديمِ ما يتعلَّقُ بهم، ولأنَّ التَّبشيرَ هو المقصودُ الأصليُّ؛ فالنَّبيُّ ﷺ قد غلبَ عليهِ التَّبشيرُ؛ لأنَّهُ رحمةٌ مُهْداةٌ للعالمينَ[2]، ولكثرةِ عددِ المؤمنينَ في أُمَّتِهِ[3]، فهم بمنزلةِ الأصلِ، وأمّا الخارجونَ عن الطّاعةِ فهم خارجونَ عنِ الأصلِ، يُضافُ إلى ذلكَ ما في تأخيرِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ مِنْ مراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ[4].

القرآنُ موجَّهٌ في الأصلِ إلى أهلِ الإيمانِ

والمُلاحَظُ أنَّ التّبشيرَ مُقدَّمٌ على الإنذارِ في كلِّ السّوَرِ المدنيَّةِ؛ لأنَّ القرآنَ موجَّهٌ في الأصلِ إلى أهلِ الإيمانِ وهم كُثُرٌ، بينما السّوَرُ المكّيّةُ يُقدَّمُ التّبشيرُ فيها تارةً والإنذارُ فيها أخرى لقلّةِ أهلِ الإيمانِ، فهم مع قلّتهم لقوّةِ إيمانهم أعظمُ منَ الكثرةِ الكافرةِ.

سرُّ اختيارِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ دونَ (ومُنذِرًا):

عمومُ الإنذارِ للكافرينَ والعاصينَ

جيءَ باسمِ المصدرِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ بدلًا منِ اسمِ الفاعلِ (منذرًا) للمبالغةِ في الوصفِ، مثلَ: رجلٌ عدلٌ، وكأنَّ اللهَ ﷻ يريدُ أن يقولَ إنّه ﷺ مُنذِرٌ بذاتِهِ وإن لم يُباشرِ الإنذارَ بلسانِهِ، منذرٌ بالوحيِ الذي أوحاهُ اللهُ إليهِ حينَ يقرأُهُ المؤمنونَ وإن لم يقرأْهُ هو منذرًا بهِ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]، فكلُّ مَن بلغَهُ القرآنُ أنذرَهُ النَّبيُّ ﷺ بهِ، ووجبَ عليهِ أن يُنذرَ بهِ مَن بعدَهُ.

كثرةُ الوصفِ بالنَّذيرِ، وقلّةُ الوصفِ بالمُنْذِرِ

وعُدِلَ إلى صيغةِ المبالغةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾، ولم يُقَلْ: (ومُنذِرًا) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لعمومِ الإنذارِ للمؤمنينَ العاصينَ والكافرينَ[5]، وذلكَ يستدعي المبالغةَ المُستلزِمةَ للتَّكثيرِ، ولأنَّ الإنذارَ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 53.
(4) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 8/ 184.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 223.

أبلغُ في ردِّ المخالفِ ورَدْعِهِ[1]، ولأنَّهُ أُريدَ بالنَّذيرِ الاسمُ، وهو المُخبِرُ بحلولِ العدوِّ بديارِ القومِ، ومِنْ أمثالِ العربِ: أنا النَّذيرُ العُرْيانُ؛ أي: الآتي بخبرِ حلولِ العدوِّ بديارِ قومٍ، والمُرادُ بالعُرْيانِ أنَّهُ ينزعُ عنهُ قميصَهُ ليُشيرَ بهِ مِنْ مكانٍ مرتفعٍ، فيراهُ مَنْ لا يسمعُ صوتَهُ، فالوصفُ بالنَّذيرِ تمثيلٌ بحالِ نذيرِ القومِ؛ للإيماءِ إلى تأكيدِ ما أنذرَهم بهِ، حتَّى كأنَّ المُخبَرَ عنهُ مُخبِرٌ عن أمرٍ قد وقعَ، وهذا لا يُؤدّيهِ إلّا اسمُ (النَّذيرِ)، ولذلكَ كَثُرَ في القرآنِ الوصفُ بالنَّذيرِ، وقلَّ الوصفُ بالمُنذِرِ[2].

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ النِّذارةِ:

النَّبيُّ نذيرٌ للكافرينَ والعُصاةِ

من فوائدِ حذفِ متعلّقِ الفعلِ وما يقومُ مقامَه عند البلاغيين إرادةُ العمومِ؛ أيْ: نذيرًا لكلِّ النّاسِ مؤمنِهم وكافرِهم، أمّا مؤمنُهم فليَتوازنَ حالُه بين التّبشيرِ والإنذارِ، بين الرّغبةِ والرّهبةِ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90]، فبُشراهُم الجنّةُ، ونُذرانهم النّارُ، وأمّا الكفّارُ فلا بُشرى لهم إذا ظلّوا معاندين جاحدين وماتوا على الكفرِ، والذي يؤكّدُ هذا العمومَ مجيءُ المفعولِ به بلفظِ (النّاسِ) في بعضِ آياتِ القرآنِ الكريمِ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ [يونس: 2][3]، كما حُذِفَ مُتعلَّقُ الإنذارِ لظهورِهِ، وللإيجازِ المناسبِ لحُسْنِ تتابعِ الصِّفاتِ المذكورةِ في الآيةِ الكريمةِ وتلاحُقِها، ولمراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

بلاغةُ الطِّباقِ:

إحسانُ النَّبيِّ ﷺ للنّاسِ جميعًا

في الجمعِ بينَ المُبشِّرِ والنَّذيرِ في قولِهِ ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ رعايةُ مُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، إذ يرسمُ الكلامُ صورتيْنِ متقابلتيْنِ؛ إحداهما صورةُ تبشيرِهِ ﷺ للمؤمنينَ، والأخرى صورةُ إنذارِهِ للكفرةِ والعُصاةِ، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّ فضلَهُ سابغٌ على

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 53.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 331.

النّاسِ جميعًا مؤمنِهم وكافرِهم؛ لأنَّ إنذارَ الكافرينَ والعُصاةِ رحمةٌ بهم؛ لصرفِهم عنِ الضَّلالِ إلى الهدى، وعنِ العصيانِ إلى الطّاعةِ، ويُستفادُ مِنْ ذلكَ أنَّ على الدّاعيةِ إلى اللّهِ سبحانَهُ أنْ يمزجَ بينَ التَّبشيرِ والإنذارِ باستعمالِ كلٍّ منهما في مقامِهِ اللّائقِ بهِ.

نكتةُ صيغةِ (فاعلٍ):

مطابقةُ الدَّعوةِ لمُقتضَى الحالِ

جيءَ بصيغةِ (فاعلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَدَاعِيًا﴾ دونَ مبالغةٍ؛ لأنَّهُ شاملٌ للتَّبشيرِ، والإنذارِ، والإخبارِ بالقصصِ والأمثالِ، وذِكرِ الأحكامِ والحدودِ، ونحوِ ذلكَ، والمأمورُ بهِ في كلِّ ذلكَ الإبلاغُ بقدرِ الحاجةِ بمبالغةٍ أو غيرِها[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بلفظِ الدّعوةِ:

الاهتمامُ والتّبجيلُ والتّوقيرُ والخصوصيّةُ

الدّعوةُ إنّما تكونُ لِما فيه مصلحةُ المدعوِّ، وأكثرُ ما تكونُ إلى الطّعامِ، وغالبًا ما يكونُ فيها نوعٌ منَ الاهتمامِ، فيرسلُ الأفرادَ إلى المدعوّينَ بدعواتٍ خاصّةٍ أو عامَّةٍ، شفاهةً أو مع رسائلَ مكتوبةٍ، ولا يكادُ يتخلّفُ عن هذهِ الدّعوةِ أحدٌ؛ لأنّها دعوةٌ إلى شيءٍ يشتهيهِ المدعوُّ ويُحبُّه، فعبّرَ بلفظِ (الدّعوةِ) ترغيبًا للمدعوّينَ وطمعًا في إيجابِ الدّعوةِ.

الدَّعوةُ تشتملُ على أصولِ الاعتقادِ

أصلُ قولِهم: دعاهُ إلى فلانٍ: أنَّهُ دعاهُ إلى الحضورِ عندَهُ، واللّهُ تعالى مُنزَّهٌ عن جهةٍ يحضرُها النّاسُ عندَهُ، فتعيَّنَ أنَّ معنى الدُّعاءِ إليهِ في قولِهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ الدُّعاءُ إلى تركِ عبادةِ غيرِهِ، فيشملُ هذا الوصفُ أصولَ الاعتقادِ في الإسلامِ ممّا يتعلَّقُ بصفاتِ اللّهِ؛ لأنَّ دعوةَ اللّهِ دعوةٌ إلى معرفتِهِ، وما يتعلَّقُ بصفاتِ الدُّعاةِ إليهِ منَ الأنبياءِ والرُّسلِ والكُتُبِ المُنزَلةِ عليهم[2].

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَدَاعِيًا﴾:

النَّبيُّ يدعو كلَّ النّاسِ إلى عبادةِ اللهِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَدَاعِيًا﴾ في قولِهِ ﷺ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 54.

التَّعميم؛ أيْ: وداعٍ كلَّ أحدٍ إلى اللهِ، وهذا شأنُ الدّاعيةِ إلى اللهِ، يحبُّ الخيرَ والهدايةَ للنّاسِ جميعًا، ولا يختصُّ بذلكَ قومًا دونَ قومٍ بناءً على عِرْقٍ أو لونٍ أو جنسٍ.

دلالةُ حرفِ الجرّ في ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾:

غايةُ الدَّعوةِ هي اللهُ

أفاد حرفُ الجرِّ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ انتهاءَ الغايةِ المكانيَّةِ مجازًا، وهو يفيدُ أنَّ غايةَ الدَّعوةِ هي إيصالُ الخلقِ إلى خالقِهم، وهدايتُهم إليهِ، ولذلكَ استحقَّتْ أنْ تُذكَرَ في سياقِ الامتنانِ والتَّشريفِ والتَّنويهِ بشأنِ النَّبيِّ الدّاعي ﷺ.

نكتةُ الالتفاتِ في ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾:

عظَمةُ الدَّعوةِ بعظَمةِ المدعوِّ إليهِ

التُفِتَ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في قولِهِ تعالى ذِكرُهُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يُقَلْ: (وداعيًا إلينا بإذنِنا)؛ لِما في التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ مِنْ بيانِ موجَبِ الدَّعوةِ، وتعيينِ المدعوِّ إليهِ الحقِّ الَّذي تجبُ عبادتُهُ، ولا ينبغي أنْ يُدعَى إلى غيرِهِ، ولِما في ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ من تربيةِ المهابةِ في القلوبِ لإيقاظِ دواعي الامتثالِ للعظيمِ الَّذي لا عظيمَ فوقَهُ؛ فهو القادرُ على الانتقامِ ممَّنْ خالفَهُ وعصاهُ وعبدَ غيرَهُ.

بلاغةُ التَّقييدِ بـ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

النَّبيُّ يدعو إلى ربِّهِ لا إلى نفسِهِ

قُيِّدَتِ الدَّعوةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ بكونِها إلى اللهِ، ولم يُقَلْ: (وداعيًا) بإطلاقٍ كما في باقي الصِّفاتِ؛ لزيادةِ التَّصريحِ بكونِ المدعوِّ إليهِ هو اللهَ تعالى، وذلكَ أنسبُ بسياقِ الحثِّ على التَّوحيدِ، فهو ﷺ يدعو الخلقَ إلى ربِّهم، والدّاعي الَّذي يدعو إلى مِثْلِ ذلكَ جديرٌ بأن يُستجابَ لهُ، فهو لا يدعو إلى نفسِهِ وأفكارِهِ، كما هو شأنُ أصحابِ الفلسفاتِ والعقائدِ؛ لأنَّ ذلكَ استبدادٌ وتسلُّطٌ[1].

بلاغةُ الباءِ في ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾:

قد تكون الباءُ للمُلابسة أوِ المُصاحبة، أوِ الاستعانة أوِ السّببيّة،

(1) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 365.

على خلافٍ بين العلماء في بعض هذه المعاني؛ أيْ: مُلتبسًا بإذنه ومُصاحبًا له، ومستعينًا به ﷺ، إذ هو المُرسِلُ الآذنُ صاحبُ الإذن، ثمّ إنّي ما دعوتُ إلى اللّه من قِبَلِ نفسي، إنَّما دعوتُهُ بسبب إذنه الذي أذِن لي به في الدَّعوة إليه.

تنوُّعُ المعاني واتّساعُها تبعًا لتنوُّعِ معاني الباء

بلاغةُ المجازِ في الإذنِ:

الإذنُ بالدَّعوةِ إلى اللّهِ مُستفادٌ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، فلا يكونُ الإذنُ في قولِهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ محمولًا على حقيقتِهِ؛ لئلّا يلزمَ التَّكرارُ غيرُ المفيدِ؛ بل هو مجازٌ عنِ التَّسهيلِ والتَّيسيرِ[1]؛ لأنَّ مَنْ أُذِنَ لهُ في أمرٍ يَسْهُلُ عليهِ الدُّخولُ فيهِ، لا سيَّما إذا كانَ الآذنُ هو اللّه تعالى؛ لأنَّهُ إذا أذِنَ في شيءٍ هيَّأ أسبابَهُ[2]، وهذا المجازُ مُرسَلٌ[3].

الدَّعوةُ مرهونةٌ بتيسيرِ اللهِ

سرُّ التَّقييدِ بالإذنِ:

قُيِّدَتِ الدَّعوةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ بالإذنِ دونَ باقي الصِّفاتِ؛ إشارةً إلى أنَّ دعاءَ المشركينَ إلى التَّوحيدِ أمرٌ في غايةِ الصُّعوبةِ، لا يتأتَّى إلّا إذا سهَّلَهُ اللّهُ ويسَّرَهُ[4]، وفي ذلكَ تنبيهٌ لكلِّ داعٍ إلى أنَّهُ لا فضلَ لهُ على اللّهِ بالدَّعوةِ إليهِ؛ بلِ اللّهُ هو المُتفضِّلُ عليهِ؛ إذ جعلَهُ في زُمْرةِ الدُّعاةِ إلى الحقِّ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ نجاحَ دعوةِ الدّاعي إنَّما يكونُ بتوفيقِ اللّهِ وفضلِهِ، فينبغي أنْ يُسنِدَ الفضلَ إليهِ، وأنْ يتَّكلَ عليهِ، لا على براعتِهِ وحِذْقِهِ في الدَّعوةِ؛ فإنَّ مفاتيحَ القلوبِ بيدِ اللّهِ وحدَهُ.

لا تُثمِرُ الدَّعوةُ إلّا بتيسيرِ اللهِ وتوفيقِهِ

وفي التَّقييدِ مَلْمَحٌ آخرُ بليغٌ، وهو أنَّ اللّهَ أرسلَ نبيَّهُ داعيًا إليهِ، ويسَّرَ لهُ الدَّعوةَ إليهِ معَ ثِقَلِ أمرِها[5]، فيؤخذُ مِنْ ذلكَ أنَّ كلَّ داعيةٍ إلى اللّهِ ﷻ صادقٍ في ابتغاءِ وجهِ اللّهِ مُعانٌ.

على قدْرِ الصِّدقِ تأتي المعونةُ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 381.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176.
(3) القُونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 381.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 234.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 54.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَسِرَاجًا﴾:

إتمامُ الدَّعوةِ بالبراهينِ والأدلَّةِ

في عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ على ما قبلَهُ مناسبةٌ لطيفةٌ، وهي أنَّهُ لمّا كانَ الدّاعي إلى اللّهِ تعالى يلزمُهُ النّورُ لتظهرَ الأدلَّةُ قالَ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا﴾؛ ليفيدَ أنَّ ذلكَ حاصلٌ[1].

وأيضًا الوصفُ بالسِّراجِ يشملُ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ مِنَ البيانِ والإيضاحِ، وكشفِ ما كانَ في الأديانِ مِنَ التَّبديلِ والتَّحريفِ، فشملَ ما في الشَّريعةِ مِنْ أصولِ الاستنباطِ والتَّفقُّهِ في الدّينِ، وهذا وصفٌ شاملٌ لجميعِ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها آنفًا، فهو كالفذلكةِ وكالتَّذييلِ[2].

بلاغةُ التَّشبيهِ بالسِّراجِ:

النَّبيُّ يُضيءُ طريقَ الحقيقةِ

السِّراجُ المنيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ مُشبَّهٌ بهِ، والمُشبَّهُ هو الكافُ في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، ويحتملُ هذا التَّشبيهُ أنْ يكونَ مِنَ التَّشبيهِ المُركَّبِ العقليِّ؛ شُبِّهَ ﷺ بالسِّراجِ المنيرِ في كونِهِ قد جُلِّيَتْ بهِ الظَّلماءُ، وهُدِيَ بهِ الضّالّونَ، ويحتملُ أنْ يكونَ مِنَ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ، وهو أنْ يكونَ الوجهُ مُنتزَعًا مِنْ عدَّةِ أمورٍ مُتوهَّمةٍ[3].

وعلى الاحتمالَيْنِ يكونُ في الكلامِ مبالغةٌ في وصفِ هدايتِهِ ﷺ، فهو يُضيءُ طريقَ الحقيقةِ، ويكشفُ الدُّروبَ الَّتي يمكنُ أنْ تَضِلَّ في متاهاتِها أقدامُ المُفكِّرينَ، وهو يُخلِّصُ النّاسَ مِنْ حَيْرةِ البحثِ عنِ الطَّريقِ الَّذي يقيمونَ عليهِ أمرَ دينِهم ودنياهم[4].

لطيفةُ اختيارِ السِّراجِ دونَ الشَّمسِ:

الصَّحابةُ حاملو لواءِ الهدايةِ بعدَ النَّبيِّ ﷺ

عُبِّرَ بالسِّراجِ دونَ الشَّمسِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ معَ أنَّها أشدُّ إضاءةً؛ للتَّنبيهِ على لطيفةٍ، وهي أنَّ نورَ الشَّمسِ لا يُؤخذُ منهُ شيءٌ، والسِّراجَ يؤخذُ منهُ أنوارٌ كثيرةٌ، فإذا انطفأ الأوَّلُ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 373.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 54.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 445.
(4) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 366.

يبقَى الَّذي أُخِذَ منهُ، وكذلكَ ينوبُ عنِ النَّبيِّ ﷺ الصَّحابةُ الَّذينَ أخذوا منهُ نورَ الهدايةِ[1].

فائدةُ الوصفِ بالمُنيرِ:

سراجُ الهدايةِ لا يُؤذي ولا يُطفأُ

عبَّر البيانُ الإلهيّ عنِ الشَّمس بالسِّراج؛ لأنَّ فيها نارًا ونورًا، يستدفئون بنارها، ويستضيئون بنورها وإن بعُدت، ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النَّبأ: 13]، ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: 16]، فلما وصف النَّبيَّ ﷺ هاهنا بالسِّراج، احترز من أن يُفهم من لفظ السِّراج أيُّ نوع منَ الأذى ناتجٍ عن نار السِّراج، فيتبادر إلى الأذهان أنّه سراجٌ مشتعلٌ وهّاجٌ، يُؤذي وتشتدُّ إضاءته مع أذاه، فاحترز بقوله: ﴿مُّنِيرًا﴾ عن أن يُفهم شيءٌ من ذلك، وأبقى الوصفَ بالسِّراج ليدلَّ على شدَّةِ الإضاءة والإنارة بلا أدنى أذًى.

ووُصِفَ السِّراجُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ بكونِهِ مُنيرًا، معَ أنَّ الإنارةَ مِنْ لوازمِ السِّراجِ؛ لأنَّ مِنَ السِّراجِ ما لا يُضيءُ إذا قلَّ دُهْنُهُ، ودقَّتْ فتيلتُهُ[2]، وفي ذلكَ مبالغةٌ في إنارةِ السِّراجِ المشبَّهِ به هُدى النَّبيِّ ﷺ، وهو كوصفِ الشَّيءِ بالوصفِ المُشتقِّ مِنْ لفظِهِ، كقولِهم: شِعْرٌ شاعرٌ؛ لإفادةِ قوَّةِ معنى الاسم في الموصوفِ بهِ الخاصِّ؛ فإنَّ هُدى النَّبيِّ ﷺ أوضحُ الهُدى، وإرشادَهُ أبلغُ الإرشادِ[3].

سرُّ ترتيبِ الصِّفاتِ:

تدرُّجُ النَّبيِّ ﷺ في هدايةِ النّاسِ

في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ترتيبٌ حسنٌ للأوصافِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُرسِلَ شاهدًا بالتَّوحيدِ، ويُرغِّبُ في ذلكَ بالبِشارةِ، فإنْ لم يكفِ ذلكَ يُرهِبُ بالإنذارِ، ثمَّ لا يكتفي بقولِهم:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 174، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 373.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 547، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 201.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 55.

لا إلهَ إلّا اللّهُ؛ بل يدعوهم إلى سبيلِ اللّهِ مُبرهِنًا على ما يقولُ بالحُجَجِ النَّيِّرةِ[1].

نكتةُ الاقتصارِ على الأوصافِ الخمسةِ:

مجامعُ الرِّسالةِ في الأوصـــافِ المذكورةِ

ذُكِرَ للنَّبيِّ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ خمسةُ أوصافٍ، وهي: شاهدٌ، ومُبشِّرٌ، ونذيرٌ، وداعٍ إلى اللّهِ، وسراجٌ مُنيرٌ، واقتُصِرَ عليها مِنْ بينِ أوصافِهِ الكثيرةِ؛ لاشتمالِها على مجامعِ الرِّسالةِ المحمَّديَّةِ[2].

المتشابهُ اللَّفظيُّ:

في سورةِ الفتحِ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: 8 - 9]، ولم يَقلْ هناكَ كما قالَ هنا: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾؛ لأنَّ آيةَ الفتحِ ليستْ في سياقِ الكلامِ عنِ الدَّعوةِ، وإنَّما هي في سياقِ الكلامِ عنِ القتالِ والبيعةِ والفتحِ عليهِ، فقد قالَ سبحانَهُ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9]، ومِنْ معاني التَّعزيرِ الإعانةُ والنُّصرةُ بالسَّيفِ، وقالَ بعدَها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، ويستمرُّ الكلامُ في هذا السّياقِ إلى آخرِ السّورةِ، وأمّا آيةُ الأحزابِ فهي في سياقِ التَّبليغِ، فقد قالَ سبحانَهُ قبلَ هذهِ الآيةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ [الأحزاب: 39][3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

البعثُ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ

يشتركُ الإرسالُ والبعثُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ، وهو توجيهُ الشَّيءِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ويفترقانِ بأنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 173.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 52.
(3) السّامرّائيّ، مراعاة المقام في التّعبير القرآنيّ، ص: 50.

والإيقاظِ والإثارةِ، كبعثِ البعيرِ مِنْ مكانِهِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلّا في المواضعِ الَّتي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)؛ نحوُ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: 3][1].

(1) محمد داود، معجم الفروق، ص: 136 - 137.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»